ركنا الأدب: الشِّعر والنّثر

كلُّ ما في الحياة يصحُّ أن يكون تجربة أدبيَّة. لكنَّ هذه التَّجربة تحتاج إِلى مهارة ليستطيع الأديب أن يؤدِّيها إلى غيره. ذلك بأنَّ الأدب صلةٌ بين المؤلِّف والقارئ، لا يتمُّ معناه إلاَّ بتأدية أغراضه. وذلك بألفاظ تعكس تجاربه وتشخِّصها فتستثير القارئ للمشاطرة.

ويعمد الأديب لغرضه هذا إلى أحد ركني الأدب: الشِّعر أو النَّثر.

عرَّف الأدباء الأقدمون الشِّعر بقولهم: « إنَّه الكلام الموزون المقفَّى ». إلاَّ أنَّ هذا التَّعريف ناقص، لا يتجاوز المظهر المحسوس الملموس من نظم البيت على تفاعيل عروضيَّة مرتَّبة على نسق خاص ينتهي بقافية.

غير أنَّ الشِّعر يتطلَّب بين اللفظ والوزن ائتلافًا، أي انسجامًا بينهما؛ فلو أُفْرِد أحدُهما عن الآخر لسقَط موضع الجمال منهما؛ كما يتطلَّب الشِّعرُ ائتلافًا بين المعنى والوزن. فبحر الرَّمل، على سبيل المثال، بحر الرِّقَّة والعاطفة يستحسن النَّظم عليه في الأفراح والأحزان، وفي وصف الطَّبيعة لِما فيه من رقَّة ونعومة. فائتلاف الوزن مع المعنى متمِّمٌ لائتلافه مع اللفظ.

من هنا القول إنَّ الشِّعر يخسر وَيَهِنُ إذا ما تُرجِم إلى لغة أخرى، أو نقِل إلى غير الوزن الموضوع له في الأصل، وقافية غير القافية التي كانت له.

والشِّعر سبقَ النَّثرَ في الظُّهور لأنَّ الشَّعب في فطرته ميَّالٌ إلى الخيال والعاطفة أكثر منه إلى العقل والتَّفكير، وله من رهافة الحسّ وطلاقة اللسان ما

يساعده في التَّعبير الصَّادق عن عواطفه، دونما حاجة إلى الكتابة التي تنشأ بنشوء المجتمعات وتنو بنموِّها وتكبر وفق الحاجة إليها.

لذلك كانت الآداب الفطريَّة شفهيَّة وكان الشِّعر أبرزها. وكان للشعراء مكانة أسمى من مكانة الخطباء.

ليس للشعر لغة وموضوعات، وللنثر لغة وموضوعات أخرى. فاللغة والموضوعات مشتركة بينهما يتناولها الشَّاعر كما النَّاثر. بيد أنَّ الشِّعر هو كلام الانفعال المصوَّر أي أنَّ الشَّاعر يتفاعل مع الموضوع فتبرز المعاني بلغة تناغمت ألفاظها وتجانست أصواتها.

أمَّا النَّثر فتغلب عليه صفة الوضوح لأنَّه لغة العقل والمنطق، وخير وسيلة للوضوح هو اعتماد الألفاظ الفصيحة بمعانيها الصَّريحة الواضحة. غير أنَّ الكاتب لا يستغني عن المجاز، فيأتي بالتَّشابيه والاستعارات لإظهار الصُّور الجميلة، ولكنَّه لا يحتاج إليها كما يحتاج إليها الشَّاعر. يظهرها من دون أن يسير بها إلى الوضوح. يجتذب بها إلى ما يعطيه من فنِّ الأدب. من هنا التَّمييز بين النَّثر الأدبيّ والنَّثر العلميّ، فهذا يُعنى بإيصال المعنى بأخصر الطُّرُق، وأوضحها، بلا تنميق ولا تزويق، وذاك يميل إلى المجاز لتحريك الشُّعور في القارئ أو السَّامع.

د. جوزيف حسيب عبد السَّاتر